

العربية: لغة التعليم الطبي في الماضي والحاضر

الدكتور

محمد هسيّم الخياط

عضو مجامع اللغة العربية

بدمشق وبغداد وعمان والقاهرة وعليكرة

وأكاديمية نيويورك للعلوم

كبير مشاري إلى إدارتي المنظمة الصحية العالمية لشرق المتوسط

تفضّل أخي الدكتور أحمد ديب دشاش، فاقترح عليّ أن أتحدّث إلى جمعكم الكريم في موضوع تعريب التعليم الطبي.

وقد ذكّرني ذلك على الفور بحدّثين تاريخيّين مهمّين حدّثا في الثلث الأخير من القرن العشرين، وقد سمحت لنفسني أن أبدأ بهما توطئة لهذا الحديث.

أولّ الحدّثين حدّث في أواخر السّتينات من القرن الماضي. فقد ضاق الأطباء العرب دُرْعاً في مؤتمرات اتّحاد الأطباء العرب التي كانوا يعقدونها، بعدم وجود لغة واحدة يتفاهمون بها. فالذي تخرّج في كُليّة طبّيّة روسية مثلاً لا يفهم شيئاً مما يقوله خريج كُليّة تعلّم بالفرنسية أو بالإنكليزية، والعكس صحيح. وقُلّ مثل ذلك في مَنْ تعلّم في كُليّة ألمانية أو إيطالية أو هنغارية أو بلغارية أو تركية. صحيح أن الإنكليزية قد أصبحت لغة أكثر ما يُنشر، ولكن قارئها الذي لا يُحسن الإنكليزية ينكبّ على مطالعتها والقاموس في يده، يقرأ متعثراً ولا يفهم كثيراً مما يقرأ. أما الذي يستمع إلى محاضرة بلغة لا يُحسنها فلا يستطيع أن يستعمل المعجم، ويصعب عليه فهم المحاضرة فضلاً عن النقاش أو الحوار بشأنها. وبذلك تصبح هذه المؤتمرات وأمثالها مؤتمرات عقيمة لا تحقّق الهدف الذي أقيمت من أجله. من أجل ذلك اتّخذ اتحاد الأطباء العرب قرارين مهمّين؛ أحدهما: أن تكون اللغة العربية هي لغة المحاضرة والمحاورة في مؤتمراته؛ والثاني: إنشاء لجنة لتوحيد المصطلحات الطبية العربية وإعداد معجم طبي موحد أو موحد.

وقد كان. فأصبحت اللغة العربية لغة مؤتمرات اتحاد الأطباء العرب، وقامت لجنة المصطلحات في اتحاد الأطباء العرب بإصدار الطبعة الأولى من المعجم الطبي الموحد بالإنكليزية والعربية سنة ثلاث وسبعين وكانت تضم قرابة أربعة عشر ألف مصطلح، وأعيد طبعها طبعة ثانية مصححة بعد عام وبعض عام، ثم ارتأى اتحاد الأطباء العرب ضرورة توسيع المعجم وإضافة المصطلحات الفرنسية إليه، فصدرت طبعته الثالثة سنة ثلاث وثمانين، وهي تضم قرابة خمسة وعشرين ألف مصطلح .. أقول: صدرت برعاية ودعم مالي من مجلس وزراء الصحة العرب، ثم من منظمة الصحة العالمية ممثلة في مكتبها الإقليمي لشرق المتوسط. ها قد صدرت الآن الطبعة الرابعة - عن مكتبة لبنان - وهي تشتمل على قرابة مئة وخمسين ألف مصطلح. وقد شرعنا في إعداد طبعات للمعجم تشتمل كذلك على المقابلات الإسبانية والألمانية والفارسية وغيرها.

أما الحدث الثاني فكان في أوائل تسعينات القرن الماضي، يوم أصدرت اللجنة الإقليمية لمنظمة الصحة العالمية، وهي مؤلفة من وزراء الصحة في دول إقليم شرق المتوسط ومعظمهم من وزراء الصحة العرب، قراراً بالعمل على جعل لغة تعليم الطب وسائر العلوم الصحية في الكليات والمعاهد في الإقليم باللغة الوطنية، وكلف المكتب الإقليمي بإعداد سلسلة من الكتب الجامعية باللغة العربية، وخصّص لذلك، ولإجراءات التعريب بصفة عامة، قسطاً مهماً من نصيب كل دولة من ميزانية منظمة الصحة العالمية. وكانت الحجة التي أجمع عليها وزراء الصحة العرب وسائر وزراء الإقليم، أن الحكم على صلاحية المنتج إنما يعود في الدرجة الأولى إلى المستفيد أو المستهلك، وهو في حالة خريجي كليات الطب وسائر العلوم الصحية: وزارات الصحة، لا وزارات التعليم العالي ولا الهيئات التدريسية في الجامعات أو المعاهد. وقد كان حكم وزراء الصحة جميعاً على خريجي كليات الطب في البلاد العربية حكماً سلبياً، مفاده أن هؤلاء الخريجين لم يُحسنوا استيعاب المادة العلمية لأنها تدرّس لهم بغير لغتهم، علماً بأن زادهم من اللغة الأجنبية التي يتعلمون الطب بها لا يزيد على المقدار الضحل الذي تلقّوه في المدارس الثانوية. ثم إن هؤلاء الطلبة يتلقّون تدريبهم في الأبراج العاجية وفي قصور المرضى التي يُقال لها المستشفيات، ولكنهم لا يتدربون أبداً في المجتمع المحلي ولا في المراكز الصحية التي سيعملون فيها بعد تخرّجهم.

*

أسمح لنفسي بعد هذه المقدّمة التي طالت أن أتطرّق بإيجاز إلى ثلاثة أبعاد تهمنا في موضوع تعليم الطب وسائر العلوم الصحية بالعربية: بُعدٌ تاريخي، وبُعدٌ تربوي، وبُعدٌ اجتماعي.

أما البُعد التاريخي فيتلخّص في أن أمّتنا العربية ليست جديدة في تعاملها مع العلوم التي وجدت نفسها على غير معرفة بها، حينما انفتحت على العالم، فوجدت أمماً أخرى قد سبقتها وتفوّقت عليها في مضمار العلم. فقد حدث ذلك من قَبْل عندما انفتحت أمّتنا على حوض الحضارات في شرقي البحر المتوسط وجنوبه. وقد كان عَجَباً من العَجَب، لم يشهده التاريخ من قَبْل أو بَعْد، أن أمة فاتحة تُملّي شروط الصُلح على المغلوبين، فتطلب إليهم أن يقدّموا لها كُتُب العلم والفلسفة غرامة حربيّة!... هذا ما فعّله العرب في صلحهم مع الرُّوم، وهذا وحده دليلٌ قاطع على أنهم كانوا على استعداد لقبول هذه العلوم واستيعابها وتمثّلها، ثم الخروج منها بمبتكراتٍ لم تُحطّر على البال.

ويوم أن استقرّ العرب في بلاد فارس ومصر، لَفَتَتْ أنظارهم حركاتٍ علميّة في جُنْدِيسَابُورَ وحرّان والإسكندرية، فحاولوا أن يُفيدوا منها، وشُغِلُوا أولاً بما تقتضيه ظروف الحياة. وإنّك لتري خالد بن يزيد الأمويّ يُعنى في عهد مُبَكّرٍ بالكيمياء والطب والفلك، ويأمر بعض المتخصّصين بمصر بترجمة رسائل فيها عن اليونانية أو القبطية. ثم ترى أمير المؤمنين عُمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، يأمر «ابن ماسرجويه» بترجمة كتاب «أَهْرُنَ الْقَسِّ» في الطب. ويوم أن اتّجه المنصورُ نحو مدرسة جُنْدِيسَابُور التي أسّسها كِسرى أنوشروان، إنما كان يبحثُ عن أطبّاء، وقد اهتدى إلى بني بَخْتِيشُوع الذين كان لهم شأنٌ في نشأة الدراسات الطبية العربية، وإسهامٌ في حركة الترجمة الكبرى. كما قام في أيامه عبد الله بنُ المقفّع، بنقل كُتُب في المنطق والطب كان الفرس قد نقلوها من اليونانية، كذلك نقل يحيى ابنُ البطريق كُتُباً كثيرةً لبُقراط وجالِينُوس، أمره المنصور بنقلها.

المهمُّ أن علماء هذه الأمة وقادتها اتَّفَقوا على ضرورة نقل هذه الكُتُب إلى العربية، ولم يخطر ببال أحدٍ منهم - في ما نعلم - أن يأمرُ بنسخ هذه الكُتُب بلغاتها الأصليّة

نسخاً متعدّدة، تكون في متناول طُلاب العلم؛ كما لم يَحْطُر ببال أحدٍ منهم – في ما نعلم أيضاً – أن يأتي بأساتذة من السُريان أو اليونان، يُلقون على طلابهم العرب دروساً في هذه العلوم باللغة السُريانية أو اليونانية، بلّه أن يقوم أساتذة من العرب بتدريس تلامذتهم هذه العلوم بالسُريانية أو اليونانية ... بل إننا لنزعم أن لو جمح الخيال بأحد الناس فدعا إلى مثل ذلك، لظنّه الناس مخبولاً، ولأودعوه بيمارسَتاناً من بيمارسَتانات المجانين. أما العقلاء، فإنما يدعون إلى نقل هذه العلوم بالترجمة المجوّدة إلى لسان العرب، بحيث يستطيع الناس جميعاً قراءتها وفهمها واستيعابها والاستفادة منها.

*

ثمّ إن للموضوع بُعداً تربوياً لا يقل عما تقدّم شأناً وخطراً. فلو أن سائلاً سألك: ما القراءة؟ لكان جوابك: إنها الفهم والاستيعاب. فليست القراءة مجرد عملية بصرية، ولكنها كما يقول كارول Carrol « عملية تتطلب معلومات مرئية ومعلومات لا مرئية non-visual. أما المعلومات المرئية فتأتي من الصفحة المطبوعة، وأما المعلومات اللامرئية فتأتي من الدماغ ». وهذه المعارف اللامرئية، تتمثّل في حقيقة الأمر في نوعين من المعارف، يستمدّ القارئ معظمها من ثقافته، ونعني بهما: تلك التي اختزنها المرء منذ صغره، وأضاف إليها من تجاربه وتعلّمه، وتلك المتعلقة بالنظام اللغوي لديه. فما يُضيفه القارئ على النص من خبرته التعلّمية، يحدّد إلى حدٍ بعيدٍ ما سوف يكتسبه هذا القارئ من النص الذي بين يديه. فالمعنى – كما يقول أوغستين وتوماس Augstein & Thomas - « ليس موجوداً على الصفحة بنفسه، ولكنه يتولّد عليها من مادة خام، مُستقاة من خبرات القارئ ». وهذا التولّد – كما يقول ويدوسون Widdowson - « عملية ديناميكية، تتخلّق فيها المعاني أولاً بأول ».

والذي يدرس نصّاً علمياً بغير لغته، يتعامل مع مفردات النص مفردة مفردة، باذلاً جهده في فهم كل منها على حدة، بغض النظر عن سياقها. فهو ينصرف إلى دراسة تفاصيل العبارة، ولكنه كثيراً ما يُخفق في أن يستخرج المعنى الكامن في الجملة ككل. إنه – كما يقال – يرى الشجرة ولكنه لا يبصر الغابة. ويزيد الأمر سوءاً، أن مثل هذا الدارس يكونُ بطيء القراءة من جرّاء ذلك، وذلك ضربٌ جديدٌ من الإعاقة ينضاف

إلى ما سبق. والحق أن إجهاد الذهن في فكِّ الحرف - إن صح التعبير - ينوء بالذاكرة القصيرة الأمد، وبذلك يخرج القارئ من قراءته كأن لم يقرأ.

إنَّ اكتسابَ أمةٍ لِعِلْمٍ عصرها يمرُّ - كما يقول الأستاذ عثمان سعدي - بثلاثة مراحل: مرحلة المضغ، ومرحلة الهضم، ومرحلة التمثُّل assimilation. وإذا كان يمكن لأمة من الأمم أن تمضغ علمَ عصرها بلغة أجنبية، وأن تهضم إلى حدٍّ ما هذا العلم بلغة أجنبية، إلا أنها لا تستطيع أبداً أن تتمثِّل علمَ عصرها إلا بلُغتها الوطنية. ولم يتمثِّل أجدادنا علمَ عصرهم، إلا بعد أن نقلوه إلى لغتهم، وعَلِّمُوهم بها في مدارسهم حتى تمثِّلوه، ثم أبدعوا علمهم الذي استَقَّاه الغربُ منهم في ما بعد عن طريق الترجمة كذلك.

ليس غريباً بعد ذلك، أن نرى الأمم المتقدمة بلا استثناء، تصرُّ على أن يتعلم المرء بلغته التي ارتَضَعَ لبانها مع لبن أمه. فقد صَحَّ عندها جميعاً، أن الطالب يتلقَّى العلم تلقياً أفضل بلغته الأم وأن الأستاذ يوصل العلم بقدرة أكبر بلغته الأم كذلك، وأن الاثنين يتمكَّنان، تعلُّماً وتعليماً، من التواصل والتفاعل والإبداع بدرجةٍ أنجع، بتلك اللغة السارية عميقاً في عروقهما، بعيداً عن تشنُّت الدَّهن وتمزُّقه، بين دفق المعرفة الجديدة وبين مغاليق اللغة الغريبة، وبمنأى عن عُقدة الدونية والاستلاب والاغتراب، المتمثِّلة في ربط العلم باللغة الأجنبية، وربط توافه الحياة اليومية باللغة القومية. كما صَحَّ عند هذه الأمم المتقدمة، أن العالم لن يستمع إلى أمةٍ تتحدَّث بلسان غيرها - كما قال ذلك الرئيس الفرنسي السابق فرنسوا ميتران لشعبه المتقدِّم المتعلِّم قبل سنين - وأن العلم والثقافة لن يُسْتَنْبِتا في أرضٍ بغير لسانها، وأن التاريخ لم يُسجَل قط، أن أمة من الأمم حقَّقت التنمية والتقدُّم الحضاري الحقيقي بلغة غيرها من الأمم.

*

ومن الحقائق التي لا يخالف فيها أحد، أن مستوى تعليم اللغة الأجنبية في المدارس الثانوية منخفضٌ جداً في معظم البلدان العربية، بحيث لا يكاد خريج المدارس الثانوية يعرف أوليَّات اللغة الأجنبية. أما المدرِّسون في كليات الطب، فقد أصبحت كثرتهم الكاثرة تتابع الدراسة العليا في البلد العربي نفسه، فلا يخرج الواحد منهم أبداً إلى بلد أعجمي اللسان، وإنما زاده من اللغة الأجنبية بقايا ما تعلمه في المرحلة الثانوية، مع

ما اُرْتَكَمَ فوقه من كلام أساتذته من بني جلدته الذين يرطنون بلغة غير لغتهم. فكم من المحتوى الطبي يستطيع هذا المدرس أن ينقل إلى تلميذه خريج الدراسة الثانوية؟ وكيف يُراد للطالب بهذا الرأسمال الضحل أن يستوعب علوماً يستصعب الإنكليز دراستها بلغتهم هم .. والفرنسيون دراستها بلغتهم هم .. إن في هذا نوعاً من السادية التعليمية التي يمارسها أساتذة الكليات الجامعية العلمية من حيث يشعرون أو لا يشعرون، ثم في هذا حتماً خفضٌ من المستوى العلمي للطالب ولاسيما في سنواته الأولى، إذ من غير المعقول له أن يستوعب الدروس الهندسية الأساسية أو الطبية الأساسية أو غيرها، بمثل ذلك الرصيد المتواضع من اللغة الأجنبية. نتيجة ذلك: انخفاضٌ لاريب فيه في مستوى الطالب العلمي.

لقد فرض هذا الواقع حلاً وسطاً على كثير من هذه الكليات، فأصبح التعليم فيها لا يتم باللغة الأجنبية ولا باللغة العربية، ولكنه يتم بلغة ثالثة مهجّنة، هي مزيجٌ من اللغة العامية الدارجة، ومن كلام عجيب تصرّف فيه الكلمات الأجنبية تصرّفاً عربياً، ومن بعض المصطلحات اللاتينية الملفوظة بلكنة محلية. وقد ساهم ذلك بالطبع في خفض المستوى العلمي لدى الطلاب أكثر فأكثر.

ثمّ، كم من الأطباء الخريجين يتابع العلم بعد تخرجه في مجلة أجنبية؟ نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال بيقين، بناء على المعطيات المتوافرة لدينا في منظمة الصحة العالمية، فنقول إن نسبتهم المئوية لا تتعدى عشرة بالمئة في أحسن الظروف. ثم يقولون لنا إننا نعلم الطالب بالإنكليزية أو الفرنسية أو الإيطالية حتى يستطيع متابعة الركب العلمي بعد تخرجه .. فأيّ ركب هذا؟

وثمّة قضية أخرى هي موضوع التخصص العالي ... فالتعليم بالعربية يستلزم كما يقولون أن يقضي خريج كلية الطب سنة أو أكثر لإتقان اللغة الأجنبية قبل دراسة الاختصاص، وفي هذا وقت وجهد ضائعان .. ولكن خريجي الجامعات التي تدرّس فيها العلوم الطبية بلغة أجنبية يحتاجون إلى مثل ذلك، فدراستهم بلغة أجنبية لا تعني أنهم أتقنوا اللغة، وما يُقبل منهم في بلادنا من لغة أجنبية لا يُقبل في البلد الأصلي لهذه اللغة الأجنبية، وأوراق الامتحان التي اطلّعتُ عليها في بعض جامعاتنا التي تدرّس بلغة أجنبية وينجح كاتبوها، لو أنها كتبت في البلد الأصلي لهذه اللغة الأجنبية لكان إعطاؤها الصفر صدقة من الصدقات. ومع ذلك، فإنه ليس منطقياً ولا جائزاً، أن

نهمل لغتنا من أجل حاجة فئة محدودة لا تكاد تزيد على عشرة بالمئة من الخريجين ممن يرغبون في الاختصاص، وفي فروع قد تتبدّل فيها مراكز الثقل بين عام وآخر تبعاً لعدد من الظروف، فلا تتفق مع اللغة الأجنبية التي درسوا بها!

وبعد، فليس يعني التعليم بالعربية إضعافاً لتعليم اللغات الأجنبية على الإطلاق .. بل ربما كان العكس هو الصحيح، لأن الوقت الذي كان يُهدَرُ لفهم معنى النصوص، يمكن أن يُستغلَّ الآن لتعلّم لغة أجنبية كما ينبغي أن يكون التعلّم.

ونعم، لدينا أجيالٌ كاملة عاجزة عن فهم أي لغة أجنبية. ولكنّ العجز في هذه الحالة ليس ناتجاً عن الاعتزاز باللغة القومية أو التعليم بها، وإنما هو نتيجة إخفاق طويل الأمد في السياسة التعليمية. هذه الأجيال لن تستطيع أن تكتسب من الثقافة العالمية اكتساباً صحيحاً كاملاً إلا ما يُنقل إليها مُعَرَّباً، أي إن التعريب هو نافذتها الوحيدة للإطلاع على العالم.

أما ما يُزعم من عجز الأستاذ الجامعي العربي عن التعليم بالعربية فما هو إلا وهم كبير أو رُهاب phobia، مرده إلى هذا الجو النفسي المريض الذي أقيم حول موضوع التعريب، وإلا فهل يصدّق عاقل، أنّ المرء يعجز عن أن يستعمل لغته الخاصة في التعبير عن أفكاره بأي مناسبة وفي أي موضوع؟

*

أمرٌ آخر يتمثّل في البُعد الاجتماعي لهذا الموضوع.

ذلك أن الظاهرة العظيمة في تطور تاريخ العلوم من الناحية الاجتماعية، هي في ديمقراطية المعرفة، ومشاركة الشعب بجميع طبقاته في التعلم والتعليم، ولم يكن من الممكن أن يتم ذلك لولا استخدام اللغة الوطنية أداة للتفاهم بين الجميع.

فديمقراطية العلم نتيجة حتمية لاستخدام اللغة الوطنية. وإصرار الجامعيين على استخدام لغة خاصة بهم لا يفهمها غيرهم، هو تعبيرٌ نفسي عن الشعور بالتمييز وإشعارٌ للآخرين به، وهو يعني الترفع عن المجتمعات التي إليها ينتمون. وأنا لا أريد أن أعتنق نظرية المؤامرة، فأقول إن الاستعمار الذي كان مخيماً على بلداننا قد استهدف من استخدام اللغة الأجنبية في التدريس الجامعي، وفي كليات العلوم

التطبيقية بشكل خاص، إقامة حواجز تقضي على مبدأ تكافؤ الفرص في التعليم العالي.

ثم إننا ننادي اليوم في جميع أرجاء العالم بشعار « الصحة للجميع »، وقوام ذلك « الرعاية الصحية الأولية »، وهذه لا تقوم إلا على أساس متين من مشاركة المجتمع مشاركة كاملة ... فكيف سنعلّم المجتمع الثقافة الصحية والطبية إن كنا لا نستعمل اللغة الوطنية؟

سيطول انتظار الجامعيين حتى يفهمهم ويتعاون معهم مستمعون يؤلفون الكثرة الساحقة من مواطنيهم الأميين .. إن كانوا سيحدثونهم بغير لغتهم!

وسيبقى العلم للجامعيين تسلية ومتعة شخصية إذا لم يستهدف خدمة المواطنين!

والتزام قواعد الصحة لا يمكن أن يتم بالتخويف من لعنة المرض، ولا يمكن لأي حملة من حملات المكافحة أن تنجح، إلا إذا شارك بها وتحمس لها أولئك الذين نعمل لخلاصهم من المرض والتخلف .. وقل مثل ذلك في حقول الزراعة والصناعة وفي كل المجالات.

وفي البلاد العربية جميعاً مشكلة الفصحى والعامية، فإذا أضفنا إلى ذلك لغة أجنبية يتكلم بها الجامعيون العلميون، كان الحوار والتفاهم غير ممكن بين أبناء الأمة الواحدة، أو هو يتم في ثلاثة مستويات، فأقرار العربية لغة للعلوم يمهد لإذابة الحواجز بين المتعلمين والجماهير.

إن العلم ليس منظّمة صناعية ولا مؤسسة بيروقراطية، ولكنه ينمو ويتزعرع ويعيش بفضل علائق بني الإنسان وتعاونهم وتنافسهم .. ولن يتأتى لهذه العلائق المتبادلة أن تكون، ما لم يساهم الطبيب العربي والعالم العربي في تقدّم العلوم، ولن يفعل أيّ منهما ذلك ما لم يفكر بلغته ويعلم بلغته ويبحث بلغته، وإلا فسنبقى مُستوردين للحضارة مكدّسين لمنتجاتها إلى الأبد.

وإذا استعرضنا قائمة الأمم، فإننا نجد أن تلك التي تمثلت علم عصرها هي التي تَسُوْدُ فيها لغاتها القومية على سائر مرافق حياتها، حيث يُكتسب العلم ويمارس البحث العلميُّ بها، (كاليابان، والصين وكوريا، وتايوان، وأندونيسيا، بل وإسرائيل). وقد كانت الصين متخلفة عن غيرها بعشرات السنين، والسبب في ذلك لُغوي. فاللغة الإنكليزية تَسُوْدُ جامعاتها بوصفها لغة العلم والتكنولوجيا، كما تَمَزَّق شعوبها مئات اللغات المحلية. إلى أن جاء ماو تسي تونغ سنة تسع وأربعين، فاتخذ أهم قرار ثوري وهو اعتماد اللغة الخانيَّة (لغة بكين) لغة رسمية وحيدة بالبلاد، فعمَّما من خلال نشر التعليم ومحو الأميَّة، واستطاع بذلك أن يوجد الخيط الذي يكوّن للمجتمع الصيني لُحْمَتَه. وتعتبر الصين الآن قمة من قمم النمو، تنهافت عليها الاستثمارات العالمية، ويُتوقع لها أن تحتل، بعد سنوات، المرتبة الثانية، بعد الولايات المتحدة الأمريكية في القوة الاقتصادية، لأنه من البديهيات، المسلّم بها عالمياً، أن التنمية الناجحة لا تكون إلا باللغة الوطنية، ومن يَزُرُ أمريكا يجد أسواقها مُغرقةً بالبضائع الصينية المُنتجة باستثمارات أمريكية.

وقد استعمر الفرنسيون الفيتنام أكثر من ثمانين سنة، كان كل شيء بها يدور بالفرنسية، فقد ألغوا الفيتنامية من الاستعمال الرسمي. وما إن تولّى هو تشي مينه قيادها، حتى ألغي بجرة قلم اللغة الفرنسية من الحياة الفيتنامية، وفرض الفُتْنَمَة الشاملة بلغة شبه بدائية، تعتبر من أفقر لغات العالم، فقد أَمَرَ، في السنة الأولى لاستقلال البلاد، بالفُتْنَمَة الفورية الشاملة. وسارع إليه مذعورين أساتذة كلية الطب، وعقدوا اجتماعاً معه دام ست ساعات، حاولوا إقناعه فيها بإعفاء كليّتهم من الفُتْنَمَة لسنوات، بحُجّة أنهم، لا هُمْ ولا طلبُهم يُحسنون اللغة الفيتنامية. وفي نهاية الاجتماع حَسَمَ القائِمُ الموقِفَ بما يلي:

«يُسمح لكم – استثناءً – هذه السنة أن تُدَرِّسوا بالفرنسية، على أن تُدَرِّسوا، في خطِّ موازٍ، أنتم وطلبُكم الفيتنامية، بشرط أن تُجرى الامتحانات في نهاية السنة، وفي سائر سنوات التدريس باللغة الفيتنامية، وأن يكون التعليم في السنة المقبلة وفي سائر السنوات بلغتنا».

وقد استطاع الفيتناميون، وهم يمارسون التعليم بلغتهم خلال السنوات العشر الأولى من استقلالهم، أن يَنَحْتُوا مليوني كلمة ومصطلح، ولنتصوّر مدى فقر اللغة التي يدخل في قاموسها مليوناً كلمة في عشر سنوات، واستطاع رجال التربية الفيتناميون خلال

هذه الفترة الزمنية القصيرة، أن يُترجموا أمّهات المراجع العلمية، وأن يؤسّسوا دوريات في سائر التخصصات بلغتهم. واستطاع الطبُّ المُفتنّم مواجهة أهوال العدوان الأمريكيّ ومعالجة آثار أسلحة الدمار الشامل، واستطاعت الهندسة المُفتنّمة أن تبني الجسور المموّهة لتصرف الطيران الأمريكي عن الجسور الحقيقية، وأن تزرع في كلّ شبر من أرض الفيتنام مخابئ للوقاية من شظايا قنابل الطائرات، واستطاع العلم المُفتنّم أن يُعالج ويشفي سبعمئة ألف منحرف، ما بين مُومس، وشاذّ جنسياً، ومُذمّن للمخدرات والمُسكّرات خلفهم الجيش الأمريكيّ بعد رحيله. وقُلّ مثل ذلك في تلك الثُمر الآسيوية، ومن بينها النمران الإسلاميان أندونيسيا وماليزيا... تلك التي قفزت من حضيض التخلف إلى أوج التقدّم، وغرّت الدول المتقدمة بإنتاجها الراقي ونماؤها المُعجّب.

ولو شئنا أن نواصل ضرب الأمثال لطلّ بنا الأمد، ولكنّي أريد أن أختتم هذه الأمثلة بمثال واحد.

لقد كانت الإرهاصة الأولى للدولة التي استطاع الصّهاينة فرّضها في بلادنا، هي إنشاء الجامعة العبريّة اللسان في الربع الأول من القرن العشرين. وما زال مظهرها الحضاري هو هذه الجامعة نفسها التي يدرّس فيها العلوم بالعبريّة أساتذة العلم العالميّ الإنكليزي والفرنسي والألماني والروسي من اليهود... لم يُريدوه بلغة من هذه اللغات، ولو أرادوه لكان ذلك - في حساب المشقّات والجهد - أيسر وأدنى، ولكنهم كانوا ينظرون إلى بناء حضارة، وإلى إنشاء الإنسان الذي يقف على قدميه! فماذا كانت النتيجة من حيث ما نحن بصدده ؟

تشير الدراسات الإسرائيليّة إلى أن الباحثين الإسرائيليين نشروا في عقْد واحد ما يقارب ستة وسبعين ألف بحث علمي، مقابل حوالي أربعة وأربعين ألف بحث للعرب مجتمعين، أي بمعدّل واحد وثلاثة أرباع إلى واحد. أما عدد المقالات المنشورة منسوبة إلى كلّ عشرة آلاف مواطن، فإن إسرائيل تحتلّ المرتبة الأولى في العالم، إذ تنشر ما يعادل مئة وتسع مقالات علمية لكل عشرة آلاف مواطن، ثم تأتي بعدها سويسرا ثم السويد ثم الولايات المتحدة... وهذه الدول جميعاً وما يليها من دول المقدمة، تتخذ من لغتها الوطنية وعاءاً للتعليم والتعلّم والبحث العلمي.

*

وبعد، فقد تحدّثتُ عن العربية لغة للتعليم الطبي في الماضي، فماذا حول كونها لغة للتعليم الطبي في وقتنا الحاضر؟

إن الإنصاف يقتضينا أن نذكر لمصرَ الحبيبة شَرَفَ الرّيادة في هذا المضمار. فقد بدأ التدريس الطبي في مصر سنة 1827، يوم أسّس محمد علي باشا في أبي زعبل ثم في قصر العيني أول مدرسة للطب الحديث، وكانت لغة التعليم بالطبع هي العربية. وأقول بالطبع لأن هذا هو الأمر الطبيعي الذي تقتضيه طبائع الأشياء: أن يكون تعليمُ كلِّ قوم بلسانهم... وهذا هو الواقع الآن في كل بلاد الدنيا إلا بلاد العرب! وكان أوّل من شَمَّر عن ساعدَيْهِ لإتقان العربية ثم التعليم بها، الطبيب الفرنسي العالم كلوت بك، فقد تخلّى عن قومه ومطامعهم، وأخلص للبلد الذي كان به حفيأً، ورعا - لله درّه - تعليم الطب في مصر باللغة العربية تعليماً دام قرابة سبعين سنة. أما الكتب التي كانوا يُدرّسون بها، فهي اليوم بين أيدينا، وقد أفدنا منها الكثير في اختيار مصطلحاتنا وتعابيرنا في كلية الطب بجامعة دمشق، ثم في وضع معاجمنا وآخرها المعجم الطبي الموحد، وهي تشهد بالمستوى العلمي الرفيع الذي كان عليه ذلك التعليم، والذي لم يكن ليقلّ عن مثيله في أيِّ من بلدان الغرب آنذاك.

أما دمشق فقد سارت على هَذي القاهرة في تعليم الطب بالعربية. وإنما بدأ ذلك في مطلع القرن العشرين بعد أكثر من تسعين سنة من مآثرة القاهرة. فقد أسّست في دمشق سنة تسع عشرة، مدرسة طبيةً عربيةً اللسان باسم «المعهد الطبي العربي»، في عهد حكومة الأمير فيصل بن الحسين، وقد خَلَفَ هذا المعهد مدرسة الطب العثمانية التي فتحت أبوابها في دمشق سنة ثلاث، وكان التدريسُ في هذا المعهد - الذي أصبح في ما بعدُ كلية الطب في الجامعة السورية ثم جامعة دمشق - باللغة العربية. ولم تُفلح محاولاتُ الانتداب الفرنسي طَوَالَ رُبْع قرن من الزمان في تحويله إلى التدريس بلغة أجنبية.

والذي يرجع إلى سِيرِ أساتذة العهد الأول من تاريخ المعهد، يُذهِشُهُ ما كانوا يفعلون. فقد كان منهم فئةٌ قليلة من المتمكّنين بالعربية، من أجل أنهم تلقوا دراسة خاصة أتاحت لهم ذلك التمكن. ولكنَّ جُلَّهُم كان ممن درّس في المدارس التركية

اللسان دونما معرفة كافية باللسان العربي. ولكنهم أقبلوا في دأبٍ عجيب على استكمال ما نَقَصَهُمْ، واجتروا منذ اللحظة الأولى على التعليم بالعربية، مُحَسِّنِينَ بيانَهُمْ يوماً بعد يوم حتى استقامَ لهم جميعاً الإمساكُ بأَعْنَةِ اللغة. ولَعَمْرِي إنها لتجربةٌ رائدة، تبين كيف يمكن للإيمان بالقضية أن يفعل كلَّ شيء.

وقد كان من عوائق التجربة بادي الرأي، عدمُ توافُر المصطلحات العلمية بيسر وسهولة. ونَعَمْ، لقد كانت المصطلحات التي استعملها الأساتذة التُّرك في كتبهم عربية النِّجار... ولكنها لم تكن تفي بكل شيء، وقد كان في بعضها حَوَالِف من العُجْمَةِ والعَنَائَةِ. فلم يَلْبَثْ أولئك الأساتذة أن شَمَرُوا عن سواعدهم، وأخذوا يجتهدون كلُّ على مقدار طاقته، ليضَعُوا من الكَلِم ما يُوافق طلبتهم... وكان منهم المُجَلِّون الذين أكثروا من ذلك بفضل رأس مالهم القديم من لسان العرب، وكان منهم المُقْلُون الذين لا يجدون إلا جُهدَهُمْ... ولكنَّ هذه الجهود جميعاً تَرَفَدَتْ لتجعلَ في مُتناول كُتَّاب الطب ثروةً لفظية وافية. وكان من الينابيع الثَّرة التي اسْتَقَى منها هؤلاء وأولئك، تلك الكتب النفيسة التي ألَّفها أساتذة قصر العيني، ثم تلك الكتبُ المَجُودَةُ التي ألَّفها بالعربية في أواخر القرن التاسع عشر ثلاثة من أساتذة الكلية الإنجيلية السورية في بيروت، التي درَّست الطب بالعربية على مدى ربع قرن، ثم لم تَلْبَثْ أن غيَّرت اسمها إلى الجامعة الأمريكية وغيَّرت لسانها إلى الإنكليزية، وهم الأساتذة الأجلُّاء بوست Post، وفان دايك Van Dyke، وورتابت Wartabet.

أيها السيدات والسادة،

أرجو أن يكون في ما قدَّمْتُ بعضُ فائدة، معتذراً إليكم عن الاختصار الشديد الذي أرجو أن لا يكون قد أخلَّ بالموضوع.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،